"وأستولوا على ممتلكاتهم

وأموالهم وأذاقوهم

مرارة الذل والهوان"

إبن القلانسى

واصفاً حال أهالى مدينة جبيل

بعد إستيلاء الفرنج عليها

ولم يتخاذل الفاطميون أمام الصليبيين، فكانت أولى محاولات تحرير القدس قادمة من مصر عندما قاد الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمى جيشه لفك الحصار عن المدينة المقدسة والدفاع عنها ولكنه وصل متأخراً، فأضطر الأفضل إلى التمركز بعسقلان منتظراً وصول الأسطول بالإمدادات، فاخذ جودفرى بزمام المبادرة وهاجم الجيش الفاطمى بمساعدة زملاءه فى الجيش الصليبى قبل عودتهم لأوروبا، فأستطاع هزيمة الجيش الفاطمى مما أكد السيطرة الصليبية على القدس وكتابة شهادة ميلاد المملكة، وقد كان وصول أسطول بندقى فى يونيه 1100م عارضاً خدماته على الصليبيين فى الإستيلاء على أى مدينة ساحلية بشرط الحصول على ثلث المدينة خالصة للبندقية، كأشارة بدء لتحرك صليبى جديد ناحية حيفا تحت قيادة تنكريد والذى نجح فى الإستيلاء عليها وقتل جميع سكانها الذين رفضوا عرض أسقف البندقية بإعتناق المسحية أو إخلاء مدينتهم، فأقتحم الصليبيون المدينة بالسيف[1] فى نفس اللحظة التى وصلت إليه فيها نبأ وفاة جودفرى[2] حاكم بيت المقدس فى 18 يوليه 1100م .

أسر بوهيمند

وفى هذه الأثناء كان بوهيمند يحاول زيادة نفوذه فى شمال الشام، بينما يشتعل صراع قديم للسيطرة على مدينة ملطية الأرمينية بين الأرمن والتركمان،

[1] ذيل تاريخ دمشق ص139

[2] يورد محمد بن العظيمى الحلبى بكتابة تاريخ حلب رواية مقتل جودفرى جراء سهم اصابة خلال معركة ضد عكا، تاريخ حلب ص360

وأنتهز بوهيمند إستنجاد حاكم ملطية الأمير جبريل الأرمنى به من هجوم الملك غازى كمشتكين بن دانشمند(477-495هـ/1084-1102م) أمير سيواس الرهيب، ليحاول بوهيمند تأكيد سيطرته وقوته فى شمال الشام، فبالرغم من قرب الرها وأميرها بلدوين من ملطية، إلا أن تجربة ثوروس الدامية أقنعت جبريل بتجنب الإستنجاد به، وقدم جبريل عرضاً سخياً سال له لعاب بوهيمند، بوضع مدينة ملطية الغنية تحت حماية أمير أنطاكيا الطموح، فزحف بوهيمند بقواته بدون مبالاة، لحماية ملطية منتشياً بخمر الإنتصارات التى لقوها فى طريقهم للقدس، ليقع فى كمين نصبه آل دانشمند التركمان لينتهى الحال بأسر بوهيمند وأبن عمه ريتشارد دى سالزنو، وذبح كامل قواته فى رمضان 493هـ/أغسطس1100م ولم يستطيع بلدوين إنقاذ بوهيمند الذى نقله كمشتكين لداخل دولته لتقع أمارة أنطاكيا فى مشكلة البحث عن من سيقوم بإدارتها حال غياب أميرها الأسير، وأن مثّل أسر بوهمند فرصة ذهبية لمملكة بيت المقدس وملوكها لتبوء مكانة أسمى من باقى الكيانات الصليبية الأخرى، بعد إختفاء هذا الأمير ذو القدرات العسكرية والسياسية الفذة، الذى كان يستطيع بإمكانيات أنطاكيا الضخمة سحب البساط من تحت أقدام بيت المقدس كالمدينة المسيطرة على باقى الكيانات الصليبية، لتجد أنطاكيا ضالتها فى شخص تنكريد أبن شقيقة بوهيمند الذى تولى الوصاية على الأمارة المكلومه لحين فك أسر خاله، والغريب إقدام كمشتكين على إطلاق سراح أسيره الثمين مقابل فدية فى مايو1113م

بلدوين الأول وتأسيس مملكة بيت المقدس

وصل خبر وفاة جودفرى لشقيقه بلدوين أمير الرهُا، فسارع بالتوجه إلى بيت المقدس بقوات ضئيلة تبلغ حوالى مائتى فارس وسبعمائة من الرجّالة[3]، بينما أخذ بطرق القدس دايمبرت فى العمل على فرض سيطرته على المملكة محاولاً إنشاء حكومة ثيوقراط(دينية) ليتعثر بمقاومة رجال جودفرى المنتمين لشمال فرنسا والغير مستعدين للخضوع لبطريرك ينتمى لمدينة بيزا الإيطالية، والمنتظرين وصول بلدوين لتسلم زمام السلطة، وهو ما عمل دايمبرت على مقاومته فقام بإرسال رسالة لبوهيمند طالباً منه منع وصول بلدوين للقدس بالقوة، ولكنه لم يكن وصل له أخبار أسر بوهيمند، وأثناء توقف بلدوين أمام أسوار طرابلس فى طريقه لبيت المقدس، أتحفه والى طرابلس

[3] تاريخ الحملة إلى القدس ص103

بالهدايا والخبز والخمر والعسل المصفى وأكباش الضأن المطهية[4]، وبأخبار كمائن دقاق أمير دمشق التى نصبها للإيقاع به خلال الطريق، مما مكن بلدوين من مقاومة قوات دقاق والتنصل منها، وعندما عسكر بلدوين أمام مدينة بيروت أرسل أمير المدينة قوارب مليئة بالطعام يومياً للورد بلدوين[5]، وعند مرور بلدوين بمدينة حيفا التابعه لتنكريد، خشى بلدوين من ذكرى عراكه مع تنكريد فلم يدخل المدينة لذلك، ليفاجئ دايمبرت ببلدوين فى 10 نوفمبر 1100 م أمامه بشوارع القدس، ليُنادى به الجميع ملكاً على بيت المقدس، وأمام الأمر الواقع تراجع دايمبرت وقام بتتويج بلدوين ـ الذى أمتلك لا مبالاة دينية سافرة ـ ملكاً على القدس بكنيسة القيامة فى ديسمبر1100م.

واشتهر بلدوين بإنحلاله الأخلاقى حتى "أنه لم يكن بإستطاعته كبح شهواته، فأنحدر وأنغمس فى الملذات الجسدية" وكان بلدوين قد تزوج بالأميرة أردا الأرمينية أثناء تولية كونتية الرها، لكسب الأرمن فى صفه والإستفادة من ثروتها، ولكن الملك بلدوين أصبح فى غير حاجة إليها، فقام بتدبير مؤامرة للتخلص منها "فأتفق مع أسقف بيت لحم لكى يتم الطلاق منها، بذريعة إنها تم إغتصابها على يد بحارة السفينة التى كانت تستقلها، وإنها ليست مثال للعفة"[6]،

وقد حاول بلدوين إنعاش إقتصاد دولته فقام بمنح إعفاء ضريبى للتجار الذين يفدون بالحاصلات الزراعية من القمح والشعير لعاصمته ،

وقد عمل بلدوين الأول على توسيع مملكة بيت المقدس وتوفير رئة لها على البحر المتوسط لضمان سهولة إتصاله بالأوروبا، التى يعتمد عليها إعتماداً كلياً لحياة مملكته، فالغرب هو الضمان الوحيد لبقاء الكيان الصليبى على قيد الحياة، فبدون الأمواج البشرية المتلاطمة على سواحل المملكة القادمة من الغرب ما كانت المملكة وأخواتها تستطيع الحياة وسط البحر الزاخر الإسلامى، علاوة على الهبات المالية المستمرة التى تغذى خزانة الصليبيين الخاوية بشكل مستمر، وبالرغم من تحكم الدوافع الإقتصادية فى الذهاب للشرق، إلا أنه طالما نجح الصليبيون على تقديم أنفسهم للغرب كحماة لأقدس

[4] تاريخ الحملة إلى القدس ص103
[5] تاريخ الحملة إلى القدس ص106
[6] تاريخ وليم الصورى ج2 ص195

مقدساتهم بالقدس، نظر الغرب للكيانات الصليبية نظرة عاطفية كجزء من لحمه ودمه، الأمر الذى جعل الحملات والجنود لا تنقطع عن سواحله ،

فما ان وصل أسطول من جنوا حتى أنتهز بلدوين هذه الفرصة وعقد إتفاقية معه على أن يهاجموا بعض المدن الساحلية على أن تحصل جنوا على ثلث الغنائم من المنقولات وكذلك شارع من سوق أى مدينة يساعدون فى الإستيلاء عليها، وقد أختار بلدوين البدء بأرسوف التى أستسلمت فى أبريل 1101 م، ولحقت بها قيسارية فى مايو 1101م التى أحدث بها الصليبيون مذبحة مروعة أعادت إلى الأذهان ذكرى إقتحام بيت المقدس، وتم إشعال النيران فى جثث القتلى من أهاليها، وإن نجا نساء المدينة، لبيعهن فى أسواق الرقيق، بعد أن حصل كل مقاتل من جنوة على ثمانية وأربعين قطعة نقود ذهبية ومائتى رطل من الفلفل، بما يغطى تكاليف سفره من جنوة مع هامش ربح مجزى ،

طرابلس وريموند

فى هذه الأثناء أتجه ريموند كونت تولوز العجوز يجر أذيال الخيبة للقسطنطينية، يلعق جراح فشله فى كل ما خطط له، فهو لم يتم تعينه قائداً عاماً للحملة كما حلُم، ولا هو أستطاع إحكام قبضته على أنطاكيا، ولا أعتلى رأس السلطة فى بيت المقدس، ليفاجئه عام 1101م بضواحى القسطنطينية مشهد أرتال الألاف من فرسان الفرنجة الزاحفين شرقاً بعد أن ألهب حماسهم أنباء سقوط المدينة المقدسة وثروات الشام المتدفقة بين أيدى مواطنيهم الذين سبقوهم للشرق، هؤلاء الفرسان قادمون من لمبارديا بإيطاليا علاوة على أعداد معتبرة من الفرنسيين والألمان، لتتجدد أمال الفارس العجوز فى إيجاد موطأ قدم لأمارة له، ليزحف متقدماً الفرسان فى طريق الثراء بعد عقد صفقة مع الأمبراطور، لتصطدم شراسة وعناد هذه الجموع المشاكسة الأمير العجوز، بعد أن رفضت هذه الجموع الإنصياع لأوامره وأصرت على عدم الزحف جنوباً، والزحف لداخل أراضى السلاجقة لتحرير بوهيمند عدوا ريموند القديم، بعد أن رفض الفرسان اللومبارديون القادمون من ايطاليا ترك أبن وطنهم يرسف فى قيود الأسر، وزحفوا قسراً لمنطقة نائية فى كبادوكيا لمحاربة آل دانشمند فى عقر دارهم، بعد أن أسكرتهم خمر إنتصارات الحملة الأولى، ليزحف ريموند مجبراً على رأس فرسانه الجدد، بعد أن جمع هذا الزحف جميع القوى الإسلامية بأسيا الصغرى، بعد أن أستشعروا خطورة هذه

الجموع الغوغائية، ويتم إستدراج الجيش الصليبى بسهولة، وهو يزحف فى رعونة وغرور، حتى أنهكته حرارة الطقس وندرة الماء والمؤن، لتهاجمه قوات السلاحقة وآل دانشمند حلفاء اليوم، ليتم القضاء على هذه الجموع الغير منضبطة بيسر وسهولة، بينما ريموند يلوذ بالفرار فى إتجاه القسطنطينية،

لتختفى هذه الجموع الضخمة بدون أى نتائج إلا إتخام أسواق الرقيق فى المدن الإسلامية بالألاف من العبيد، وتفشل هذه المحاولة الأوروبية فى تحقيق أى نجاح بالرغم من ضخامة أعدادها بسبب الغرور الذى سيطر عليهم بعد نجاحات الحملة الأولى ،

ليزحف ريموند بفلول قواته فى إتجاه أمارة بنى عمار بطرابلس حلفاءه القدامى، ليصطدم بصديقه أمير طرابلس فخر الدين أبو على بن عمار (492-501هـ/1099-1108م) ذو النزعات السلمية، ليعيد ريموند سيطرته على أنطرسوس بمساعدة فلول الجموع اللمباردية، ومعاونة أسطول جنوى تصادف مروره باحثاً عن أى غنائم، ليتخذها ريموند قاعدة عمليات للإستيلاء على طرابلس وحمص لفرض سيطرته على حوض نهر العاصى الخصيب،

ويضطر فخر الدين إلى نسيان خلافاته القديمة مع القوى الإسلامية التى طالما ساعد الصليبيين ضدهم، ليستنجد بصاحب دمشق وصاحب حمص، ليرسل دقاق صاحب دمشق ألفين من فرسانه، لينضموا إلى فرسان حمص الذين أرسلهم أميرها جناح الدولة حسين، وبالرغم من ميل ميزان القوى البشرية لصالح المسلمين إلا أن ريموند أستطاع تحطيم هذا الجيش ليحاول محاصرة طرابلس، قبل أن يضطر لرفع الحصار لقلة قواته، ليهاجم ريموند حصن الأكراد التابع لجناح الدولة صاحب حمص، الذى إغتيل على يد الحشاشين أثناء تجهيزه قوات لمقاتلة ريموند، أثناء صلاة الجمعة بتدبير "الحكيم المنجم الباطنى"[7] رئيس الحشاشين وصديق رضوان صاحب حلب المقرب، ليحاول ريموند إستغلال مقتله ويهاجم حمص، وأن أضطر لرفع الحصار بسبب نجدة دقاق للمدينة،

ليستغل ريموند رسو اسطول جنوى من أربعين سفينة بميناء اللاذقية ويهاجم بمعاونته مدينة جبيل التابعة لإمارة طرابلس ويستولى عليها (1104م) وسط مذابح قامت بها قوات جنوة التى لم تحترم الأمان الذى منحه ريموند للسكان

[7] تاريخ دمشق ص230

المستسلمين، وأستولوا على ممتلكاتهم وأموالهم وأذاقوهم مرارة الذل والهوان[8] ويتم منح جنوة ثلث المدينة لتكون نواة مستعمرة جنوية بجبيل تحت حكم أسرة أمبرياتشى ،

ويقوم ريموند ببناء قلعة صنجيل أمام طرابلس لإحكام الحصار على المدينة الصامدة، وعندما نجح الطرابلسيون فى إحراق هذا الحصن أصيب ريموند بحروق بالغة أدت إلى وفاته ،

ليختار فرسان ريموند وليم جوردان أبن خالته خليفة له لإكمال سيطرته على طرابلس، بينما برترام أكبر أبناء ريموند فى فرنسا يدير أملاك والده هناك، ليُحكِم وليم جوردان الحصار على طرابلس بإستيلاءه على حصن عرقة المنيع الواقع شمال طرابلس، ويزداد الأمر سوءاً داخل المدينة المحاصرة، وترتفع أسعار السلع بشكل جنونى، بينما تتعالى أصوات أميرها أبن عمار طالباً النجدة، ليرتد إليه صدى صوته بلا مجيب، ليضطر إلى الإسراع لبغداد لمقابلة السلطان السلجوقى والخليفة العباسى، الذان يحييا الأمير الشجاع الصامد للحصار طوال ستة سنوات، بعد أستقبال شديد الفخامة، ويتبادلا معه العبارات الرقيقة المشجعة فقط، بدون أى نية للمساعدة العملية، ليقتنع أبن عمار بعدم جدوى وجوده ببغداد لييمم وجهه شطر طرابلس، ليصطدم بأذنيه فى منتصف الطريق خبر إستنجاد وجهاء طرابلس بالفاطميين وتسليم المدينة لهم، بينما يصل برترام بعد مقتل أبيه بثلاث سنوات مطالباً بإرثه، التى كان يرى طرابلس من ضمنه حتى قبل سقوطها، بدعوى إن أبيه أول من حاصرها، ليرفض وليم جوردان تسليمه ثمرة مجهوداته طوال السنوات الثلاث، ليستنجد برترام ببلدوين، فى الوقت الذى أستنجد وليم جوردان بتنكريد، ليتم تقسيم أراضى طرابلس بين الأميرين، وتتحد جهود الجميع فى إسقاط المدينة الباسلة بعد ست سنوات من الحصار الفظيع، وكالعادة لم تحترم قوات جنوة إتفاق الملك مع وجهاء طرابلس بالإخلاء الأمن لمدينتهم، فأطلقوا العنان لوحشيتهم الجشعة فى قتل أهالى المدينة العزل دون إستثناء (1109م) ليعتلى برترام (502-505هـ/1109-1112م) عرش إمارة طرابلس الموحدة بعد إغتيال وليم جوردان فى ظروف غامضة لا تبرءه،

موقعتى الرملة الأولى والثانية

[8] ذيل تاريخ دمشق ص143

لم تقف مصر مكتوفة الإيدى، فأعتمد الأفضل سياسة القتال لطرد الصليبيين من الساحل والثأر لضياع بيت المقدس وهزيمته السابقة وخداع الصليبيين له، فقد كانت للدولة الفاطمية قوات بحرية ممتازة، ونظم عسكرية برية، لعل من أهمها صبيان الحُجر، وهم جنود كانوا يتم تجنيدهم من أبناء المصريين، سواء عسكريين أم مدنيين، وكانوا يتلقون تدريباتهم بثكنات عسكرية تسمى الحُجر، ملحقه بالقصر الخليفاتى، وأن كانت هناك حُجر أيضاً بجوار باب النصر، يضاف لهؤلاء صبيان الخاص وهم قوات النخبة والمكلفين بحراسة الخليفة، علاوة على باقى فرق الجيش الفاطمى مثل فرق الريحانية والجيوشية والأسكندرانية والفرحية وعبيد الحافظ [9]

ومثّل صبيان الحُجر قوات نظامية محترفة ومدربة تدريب عالى، وأدت الحروب الصليبية إلى زيادة أعداد صبيان الحُجر فى عهد الأفضل حتى أصبحوا كالمماليك السلطانية خلال عهد المماليك، وكان يتم تشكيل قوات حامية عسقلان من هذه القوات النخبة، التى كان يجرى إستبدالها أربعة مرات سنوياً، حيث "كان من عادة المصريين أن يرسلوا إليها أربع مجموعات سنوياً تحل الواحدة محل الأخرى، حتى تظل قوة حامية عسقلان متجددة على الدوام، ومن ثم يكونون قادرين دائماً على متابعة القتال ضد الفرنجة وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة"[10]، "وكان من الطبيعى أن يحاول هؤلاء القادمون الجدد مضاعفة جهدهم للدلالة على شجاعتهم، لذا كانوا يكثرون من القيام بغارات وحملات هدفها التخريب"[11] حتى "رأى الصليبيون أن ليس ثمة بارقة أمل تومئ إلى توقف هذه الغارات الجريئة من جانب الأعداء لإستمرار تجدد قواتهم التى كانت كالحية ذات الرؤوس التسعة، فكانوا كلما هزمت طائفة من جندهم حلت أخرى جديدة مكانها، فيزدادون بأساً على بأس"[12]

حتى أضحت عسقلان شوكة فى جنب مملكة بيت المقدس وصخرة تحطمت عليها هجمات صليبية متوالية، مما دفع وليم الصورى بوصفهم "كالفراشة

[9] الإعتبار ص6
[10] وليم الصورى ج3 ص49
[11] وليم الصورى ج3 ص131
[12] وليم الصورى ج3 ص131

التى لا يقر لها قرار، يتربصون بالصليبيين الدوائر يصيبونهم فيها بالضرر"[13]

وأضطلعت صبيان الحُجر بتشكيل قوات إغارة تنطلق من عسقلان، بمفارز قوية تتألف من أربعمائة إلى ستمائة جندى، يرأس كل مائة جندى أمير يقومون بأعمال تعرضية، وتشن هذه المفارز حرب إستنزاف ضد المستوطنات الصليبية، وأمتازت هذه القوات بالبسالة والفعالية والمبادءة، وأنضم إليهم العديد من الفرسان المتشوقين لقتال الفرنج مثل أسامة بن منقذ[14] الذى قاد حامية عسقلان لمهاجمة مرفأ يبنى، وتم قتل مائة صليبى وأسر العديد منهم[15]، كما حدث فى 1138م أستغلت حامية عسقلان إنشغال الملك فولك بحصار بالقرب من دمشق، وقامت بالهجوم على المنطقة الواقعة بجوار البحر الميت، الأمر الذى دفع رئيس جماعة فرسان المعبد روبرت البرجندى والفارس برنارد فاشيه بجمع الفرسان والقوات الراجلة المتبقية بالمملكة ومطاردة القوات المصرية، بينما القوات المصرية تنسحب لجر الصليبيين وراءهم، لترتد حامية عسقلان تهاجم مطارديها، فتفر القوات الصليبية وتم الفتك بالعديد منها، "وعاد العدو إلى عسقلان ظافراً منصوراً"[16] على حد قول وليم الصورى

ولم يجد الصليبيون ما يوقف حامية عسقلان إلا إستراتيجية الصليبية المعتمدة على القلاع والحصون، فتم تشيد قلعة فى بير سبع، تعقبها أخرى فى أبلين ثم ثالثة تسمى بلانش جارد، ليتم حصار عسقلان، ويضاف لذلك ضعف وشيخوخة الدولة الفاطمية،

وإن كان وسائل حماية فرسانهم لا تضاهى دروع فرسان الفرنج، وأعتمد فرسان صبيان الحُجر على الرمح والسيف فى قتالهم، فى ظل ضعف دروعهم النسبى، بينما أعتمد السلاجقة على أسلوب القذف والقتال من مسافة بإعتمادهم على الفرسان النبّالة، الأمر الذى قلل القتال المتلاحم ضد الفرسان الصليبيين المدرعين بشكل كامل،

---

[13] وليم الصورى ج3 ص38

[14] فارس وشاعر عربى ينتمى لأسرة بنى منقذ أمراء شيزر بلبنان ،

[15] الإعتبار ص17

[16] وليم الصورى ج3 ص174

قام الأفضل بتشكيل حملة وعهد بقيادتها إلى مملوك أبيه المسمى سعد الدولة القواسى، والذى أضاع عدة أشهر معسكراً بعسقلان الأمر الذى أتاح لبلدوين تنظيم قواته ودفاعاته، ليزحف الجيش المصرى ويتمركز بالقرب من مدينة الرملة ليتسنى له تهديد مدينة القدس ومرفأ يافا، ويلتقى بالجيش الصليبى الخارج لقتال قواته فى 7سبتمبر1101م بقرب مدينة الرملة، وفى أثناء القتال يقتل قائد الجيش المصرى بعد أن سقط به جواده، بينما قلب الجيش المصرى يشدد ضرباته ضد الصليبيين الأمر الذى يصيبهم بخسائر فادحة تجبرهم على التقهقر والإحتماء بيافا[17]، فسارع الأفضل إلى تشكيل حملة أخرى فى مايو 1102م تحت قيادة أبنه شرف المعالى سناء الملك حسين بن الأفضل، الذى زحف فى أتجاه مدينة القدس، وحاصر مدينة الرملة ـ التى أصبحت الهدف الإستراتيجى للقيادة المصرية لتوسطها الطريق بين القدس ويافا الأمر الذى يتيح تهديد المدينتين الأبرز فى دولة الصليبيين ـ ليسارع بلدوين شمالاً فى إنتظار قوات قادمة من الشمال، بقيادة ستيفن كونت بلو، الهارب من أمام أنطاكيا والباحث عن ما يحفظ به ماء وجهه أمام زوجته الثرثارة، وستيفن كونت برجندى، ويسوق الغرور بلدوين لقتال الجيش المصرى، وعندما نصحه ستيفن كونت بلو بعدم مهاجمة الجيش المصرى صرخ فيه بلدوين بإنه سيهاجم حتى لو كان ستيفن ورجاله فى فرنسا، ويباغت الجيش المصرى بلدوين وقواته بالقرب من الرملة 17مايو1102م لينتهى الأشتباك بهزيمة بلدوين وفراره ـ بعد أن أرتمى فى أرض المعركة مختفياً بين الحشائش ـ وإحتماءه بالرملة[18]، التى زحف نحوها الجيش المصرى، وقتلوا أكثر خيله ورجالته[19] ثم أستطاع بلدوين الفرار من الرملة متنكراً بدون أخبار رجاله هو وخمسة من فرسانه وكان أمام بلدوين فارس أنجليزى يدعى روبيرت ومن خلفه بلدوين ثم أربعة فرسان، تاركاً باقى رجاله تحت رحمة السيوف المصرية، حتى الفرسان الخمسة الذين فروا معه قام الجنود المصريون بالقضاء عليهم، بعد أن أختفى فى أجمة قصب حين تم مطاردته، وقام جنود الجيش المصر بإحراق تلك الأجمة حتى أصيب جسده ببعض حريق[20] قبل إقتحام الجيش المصرى الرملة ليذهب فرسان بيت المقدس طعمة لسيوف المصريين، الذين قتلوا أربعمائة فارس صليبى وتم إرسال ثلاثمائة فارس

17 تاريخ حلب، العظيمى ص360
18 تاريخ حلب ص360
19 تاريخ دمشق ص229
20 تاريخ دمشق ص 229

أخرين للقاهرة، ومن بين القتلى ستيفن كونت برجندى وستيفن كونت بلو، وغيرهم من كبار أمراء أوروبا، ويتجول بلدوين منفرداً حتى يصل لأرسوف، ويتسلل بحراً لمدينة يافا، التى أتجه إليها الجيش المصرى لتحريرها ومطاردة بلدوين، وشاء حسن حظ بلدوين وصول أسطول ضخم من مائتى سفينة تحمل عدد ضخم من الجنود الأنجليز والفرنسيين والألمان ملئ الساحل[21]، مما أتاح معونة كان الصليبيون فى أمس الحاجة إليها، لتتجمع الجيوش الصليبية المتبقية بالمملكة وتتحد مع الحجاج القادمين من أوروبا ليخرج بلدوين من يافا فى 27مايو 1102م ليستطيع هزيمة الجيش المصرى وفك الحصار عن يافا،

ويصل للشرق أسطول جنوى باحث عن أى مكاسب، ليسرع الخطى لبيت المقدس عارضاً خدماته ومتساءلاً عن الثمن، ويسرع بلدوين بجيشه غرباً للإستيلاء على عكا فى مايو1104م بمساعدة هذا أسطول الجنوى المكون من سبعين سفينة[22]، بعد أن تم الأتفاق على إعطاء جنوا ثلث عكا بعد مقاومة بطولية من الجيش المصرى تحت قيادة الأمير زهر الدولة الجيوشى، وبالرغم من الإتفاق بين الحامية والملك بلدوين على إخلاء المدينة بشرط عدم المساس بأهالى عكا ومنحهم الأمان، إلا أن الجنويين لم يحترموا إتفاق الملك وأعملوا القتل فى أهالى المدينة العزل، الأمر الذى قلص النفوذ الفاطمى بالشام، وأتاح للصليبيين ميناءاً ممتاز يصلح للرسو طيلة أيام العام ومدينة تتمتع بحصانة قوية ووضع تجارى متميز، الأمر الذى جعل من عكا ميناء الصليبيين الرئيس بالشام ،

والأنكى هو وجود قوات تركية تعمل تحت أمرة تنكريد بأنطاكيا، ففى هذه الأثناء هرب الأمير أرتاش (بكتاش) بن تتش، من السلطان غياث الدين محمد وأرتمى بأحضان تنكريد يحتمى به، وأستجار به فأجاره، وأكرمه وأحسن إليه، وأجتمع إلى أرتاش الأتراك الذين مع تنكريد[23]

معركة الرملة الثالثة

وفى أعقاب ذلك حاول الأفضل تكرار محاولة طرد الصليبيين من الشام فقام بتشكيل جيش بعسقلان تحت قيادة ابنه سناء الملك، وحاول الإتصال بسلاجقة

[21] تاريخ حلب 360
[22] تاريخ الحملة إلى القدس ص 131
[23] تاريخ دمشق أبن القلانسى ص292

دمشق فوافق طغتكين على مساعدة الجيش المصرى بألف وثلاثمائة فارس وأوكل قيادتهم لأحد أمراءه المسمى أصبهبد صباو ويعاونه الأمير جهارتكين، قام بلدوين بالتمركز فى الرملة لتوسطها الطريق بين القدس ويافا، ومن ضمن جيشه الملك محيى الدين أرتاش بن تتش أخو دقاق والمطالب بعرش دمشق[24]، وقام الجيش المصرى والدمشقى بالهجوم والأشتباك مع بلدوين فى معركة دموية فى أغسطس 1104م أصيب فيها الطرفان بخسائر فادحة ـ من بين القتلى من الجانب الصليبى قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا ـ وأنتهت المعركة بدون منتصر أو منهزم، ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة للفاطمين لقتال الصليبيين بل كانت هناك عدة أشتباكات أكبرها التى وقعت فى أكتوبر 1106م والتى أستطاعت فيها قوة صغيرة من فرسان الجيش المصرى أبادة قوة من الجيش الصليبى فى الرملة، وكذلك قامت بمهاجمة قافلة ضخمة من حجاج أوروبيين وأبادتها تماماً، وعندما حاول روجر أوف روزوى حاكم يافا مواجهة القوة المصرية، أبيدت قوات يافا وهرب روجر بشق الأنفس، وتقدمت القوة المصرية عقب ذلك على طريق القدس حتى وصلت لحصن صليبى تحت الإنشاء يطلق عليه "كاستيل آرنو" لتهاجمه وتقتل جميع العاملين على بناءه وتأسر الفارس جيوفرى قائد برج داود والمشرف على أعمال بناء الحصن،

معركة رأس العين (حران)

وفى هذه الأثناء بشمال الشام تدور معركة بين أمير الرها بلدوين دى بورج وأمير أنطاكيا بوهيمند من جانب وأتابك الموصل شمس الدولة جكرمش وصاحب ماردين معين الدين سقمان، فبينما الصراع على قدماً وساق بين سقمان صاحب ماردين وجكرمش أتابك الموصل وخليفة كربوقا للإستيلاء على مدينة حران، وبينما قواتهما على وشك الإشتباك إذا بقوات الرها وتل باشر وأنطاكيا تتجمع وتزحف ناحية المدينة لإلتهامها، وتفرض عليها الحصار لتطفوا على سطح المعسكر الصليبى خلافات بين كونت الرها بلدوين وأمير أنطاكيا بوهمند على من ستأول إليه مدينة حران عقب الإستيلاء عليها، ومن سيرفع رايته أولاً على أسوار المدينة عند سقوطها، الأمر الذى سيضعف أصابع الصليبيين المحاصرة للمدينة، الأمر الذى حدا بسقمان وجكرمش نسيان خلافاتهما والإتحاد حتى حين لإنقاذ حران، وتقع المعركة

[24] الصورى ج1ص521

فى رأس العين بعد أن جمع جكرمش ثلاثة ألاف فارس بينما قدم سقمان سبعة ألاف فارس فى التاسع من شعبان 497هـ/7 مايو 1103م، بينما تجّمع فرنج الرها تحت قيادة بلدوين دى بورج، وقوات أنطاكيا تحت قيادة بوهيمند وتنكريد وبطرق أنطاكيا برنارد، وقوات تل باشر تحت قيادة جوسلين بما يمثل كل القوة الضاربة للصليبيين بشمال الشام، وقام الجيش الفرنجى بمحاصرة حران ولم يرغب الصليبيون فى مهاجمة المدينة حفاظاً على تحصيناتها التى طمعوا فى الإستفادة منها والإستيلاء عليها سليمة، وقام الصليبيون بمفاوضات مع المحاصرين وأن أختلف بلدوين وبوهيمند إيهما يرفع رايته أولاً أعلى أسوار حران، مما أنساهما القوات الإسلامية القادمة لقتالهم، والتى فاجأتهم بإتخاذها أوضاع قتالية ممتازة أعلى التلال المحيطة بنهر البليخ ـ رافد من روافد نهر الفرات ـ، لتدور المعركة بضفاف النهر، وحاول الصليبيون إستعارة التكتيك الشرقى، فأتبعوا أستراتيجية الكمائن، إذ خططوا بأن تهاجم قوات الرها الجيش الأسلامى منفرده، فى الوقت الذى يختبئ جيش أنطاكيا ليتدخل فى الوقت المناسب، ويتبع المسلمين الأستراتيجية التقليدية بأن تظاهروا بالأنسحاب، وما أن طاردهم جيش الرها حتى قام المسلمون بهجوم مضاد أدى لإندحار الجيش الصليبى ووقوع بلدوين دى بورج وجوسلين حاكم تل باشر وبندكت أسقف الرها فى الأسر أثناء محاولتهم الفرار مترادفين على ظهر جواد على ضفة النهر، بعد هروب بوهمند وتنكريد بجيش أنطاكيا مذعورون لدرجة قيام برنارد بطرق أنطاكيا بقطع ذيل فرسه خوفا أن يجذبه بعض فرسان المسلمين أثناء فراره، ليقع جنود الرها جميعهم بين قتيل وأسير، وكان هذا الإشتباك كارثة[25] على الصليبيين، ولم ينج بوهيمند إلا بعد إسراعه بالهرب وليجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه بعد خروج بعض المدن من تحت سيطرته بسبب الهزيمة التى لحقت به وضعف جيشه، فقام بالسفر لأوروبا ليجمع جيش لمهاجمة الدولة البيزنطية بمباركة البابا بروما فى 1107م ليهُزم بعد أن أرسل قلج أرسلان فرقة قوية من جيوشه لإنجاد الأمبراطور البيزنطى من حليفها الجشع، ويضطر بوهيمند للعودة لإيطاليا مهزوماً محبطاً لينتظر الموت الذى جاءه 1111م محتجباً عن الأنظار، بينما يتولى تنكريد الوصاية على الرها المكلومة على أميرها المنهزم،

[25] تاريخ الحملة إلى القدس ص132

بينما ينجح جوسلين فى الحصول على حريته بعد دفع فدية ضخمة فى 1107م ليلحقه بلدوين دى بورج فى 1108م بعد دفع فدية أضخم، ولم ينجح بلدوين كونت الرها فى دخول مدينته لآن تنكريد الوصى على الرها منعه[26]

وقضت معركة البليخ على آمال الصليبيين فى التوسع بالجزيرة وشمال العراق، وأقنعت الهزيمة الثقيلة التى مُنى بها الصليبيين بتحنب الدخول فى إشتباكات فى ميادين مفتوحة، وقضت على جزء كبير من الهيبة العسكرية الفرنجية، وأنهت مجهودات بوهيمند فى جعل أنطاكيا إمارة كبرى فى شمال الشام وإستيلاءه على حلب، وأتاح إنتصار المسلمين إسترداد المواقع التى أستولت عليها قوات أنطاكيا شرق نهر العاصى والقريبة حلب، وأضعفت القوة العسكرية للرها التى لم تستطع تعويض خسائرها البشرية بعد ذلك، كما كانت أول نصر حاسم حققه المسلمون فى الصراع،

وما أن يتوقف القتال بين الأعداء، حتى يشتعل بين الحلفاء، فقد فشل جكرمش وسقمان فى إقتطاف ثمرة نصرهم بالهجوم على الرها الواقعة بالقرب من ميدان المعركة والخالية ممن يدافع عنها، بسبب الخلاف الذى نشب بينهما على إقتسام الغنائم والأسرى، عندما هاجمت قوات جكرمش خيمة سقمان وتختطف بلدوين كونت الرها طمعاً فى الفدية المتوقع دفعها لإطلاق سراحه، قبل أن يهاجم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم الموصل ويخطف الأسيرين الثمينين، ليقاتل جاولى سقاوة قلج أرسلان الذى يغرق فى نهر الخابور ويصل بلدوين وجوسلين إلى يد جاولى سقاوة الذى يطلق سراحهما لقاء ستين ألف دينار فدية،

وبالرغم من هذا فتعتبر المعركة دليل عملى على أهمية العمل الإسلامى المشترك، وما يمكن للوحدة والتعاون الإسلامى أن يحققاه .

وإستمراراً فى الدعم البحرى المتدفق للصليبيين لإقتطاع المزيد من المدن الساحلية، وفد أسطول أسكندنافى ضخم من سبعين سفينة على متنه عشرة ألاف مقاتل، بقيادة ولى عهد النرويج سيجورد جورسا لافارير ذو التسعة عشر عاماً، ليتم الإتفاق على مهاجمة مدينة صيدا على أن يوفر بلدوين لهم مأكلهم ومشربهم، ويهاجم بلدوين المدينة براً بينما يحاصرها النرويجيون من البحر بأسطولهم، لمدة سبعة وسبعين يوماً، وتسقط المدينة 1110م، بعد

[26] تاريخ الحملة إلى القدس ص134

مفاوضات نصت على خروج سكان صيدا فى أمان، بعد أن فرض بلدوين عليهم مبالغ باهظة "وأستغرق أحوالهم وصادر من علم أنه له بقية منهم"[27] وتعتبر مساعدة النرويجيين أفضل بكثير من مساعدات الإيطاليين الجشعين الباحثين عن مكاسب سياسية وإستيطانية وتجارية، بينما النرويجيون الغير مهتمين بالتجارة يريدون العودة لبلادهم سريعاً،

وقد أدى نجاح الصليبيين إلى صدمة للشعب العربى ومحاولتهم دفع الخليفة والسلطان السلجوقى لإتخاذ موقف إيجابى ضد الوجود الصليبى فى الشرق، عندما دخل بغداد وفد من وجهاء حلب وفقهاءها وصوفيتها، مدفوعين بإعتداءات تنكريد الوصى على أنطاكيا، بعد أن هاجم حصن الأثارب التابع لحلب وأستولى عليه رداً على مهاجمة رضوان صاحب حلب لأنطاكيا، بل وأجبر رضوان على دفع أتاوة ضخمة له، وبينما المصلون ينتظرون أداء صلاة الجمعة، أندفع وفد حلب يحطمون منبر الخطيب ومنعوا الخطيب من الصلاة وترتفع الأصوات مطالبه بالجهاد،

وبالفعل حاول السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه الأخذ بالمبادرة متشجعاً بتحريض أليكسيوس كومنين أمبراطور بيزنطة الحزين على خداع الصليبيين له، وقام بدفع جيش كبير تحت قيادة حاكم الموصل الأمير الأسفهسلار شرف الدين مودود[28] فى إبريل 1111م لطرد الصليبيين من الشام، ومعه الأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة بأذربيجان، والأمير قطب الدين سكمان صاحب ميافارقين، وصاحب همذان الأمير برسق بن برسق، وقد أمتلك مودود إرادة للجهاد والحرب ضد الغزاة دفعته إلى نقل المعركة لعقر دار أعدائه، والإسراع فى دخول الشام بجيشه الكبير والمفتقد للأنسجام بين عناصره، ومقاتلة الصليبيين وإحراز بعض الإنتصارات، ولم يثنيه مرض الأمير برسق والأمير سكمان، وحاصر مدينة تل باشر وبها صاحبها جوسلين الأول، وتختنق المدينة وتوشك على السقوط، لولا الرشوة التى دفعها جوسلين للأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة بأذربيجان، والذى رفض إستكمال الحصار بدعوى إنقاذ حلب من تنكريد، ليزحف مودود بجيشه لحماية حلب، فلا يجد مودود ترحيباً من رضوان، الناظر بفزع لضخامة جيش مودود من

[27] ذيل تاريخ دمشق ص171
[28] تاريخ دمشق أبن القلانسى ص278

أعلى أسوار قلعته، وأغلق فى وجوههم باب حلب[29] بل وقام بمهادنة الصليبيين وأظهر العداء لمودود، ودفع قواته لمهاجمة أطراف الجيش السلجوقى الأمر الذى أضطره للأنسحاب،

ولاريب أن سبب النتائج الهزيلة لحملة مودود هو العداءات الشخصية للحكام المسلمين، وعدم وجود قاعدة بالشام يستطيع مودود منها الإنطلاق لقتال الصليبيين، فيجرى مودود إتصالات من طغتكين أتابك دمشق، ينتهزها طغتكين لضرب الحصار الإقتصادى الذى فرضه بلدوين على دمشق، بسبب مهاجمة القرى المجاورة لدمشق والتى تمدها بإحتياجاتها المعيشة، وكذلك قطع الطرق حول دمشق الأمر الذى أدى إلى أزمة إقتصادية طاحنة بالمدينة، وإرتفاع جنونى بالأسعار،

لتنتهى المفاوضات بالإتفاق على مهاجمة إمارة طرابلس المجاورة لدمشق، ليعيد الكرة مرة ثانية فى 507هـ/1113م عندما تجمعت قوات الموصل تحت قيادته، وقوات دمشق تحت قيادة طغتكين، وقوات حلفاءهم أمراء مدن الجزيرة، وزحف مودود بقواته وعبر نهر الأردن، وإتجه إلى الأقحوانة ومنها لطبرية حيث تجمعت قوات بيت المقدس بقيادة بلدوين وقوات أنطاكيا بقيادة روجر، وقوات تل باشر بقيادة جوسلين، وألتقى المسلمون بالقوات الصليبية، بعد أن أخفى مودود قواته فى كمين محكم، وكلف خمسمائة من فرسانه بالتظاهر بخروجهم بحثاً عن الأعلاف والتحرش بالصليبيين، الذين ما أن شاهدوا هؤلاء الفرسان حتى طاردوهم طمعاً فى قلة أعدادهم، ليتجه الخمسمائة فارس نحو الكمين متظاهرين بالفرار ليتم الإطباق على قوات الفرنج ويستحر فيهم القتل، وأنتهت المعركة عن هزيمة ثقيلة للصليبيين، أضطر بلدوين إلى خلع أسلحته وإلقاء رايته من يديه وأنبطاحه أرضاً حتى لا يُعُرف فيقع فى الأسر، ونجح بلدوين فى الفرار بشق الأنفس فاقداً رايته وخيمته الفاخرة[30]، وأُخذ سلاحه[31]، بعد أن أصيب جيشه بخسائر فادحة جدا ولم ينقذه إلا مسارعة أمراء طرابلس وأنطاكيا والرها بمد يد العون له وكذلك حسن حظه بوصول أسطول يحمل ستة عشر ألف جندى قادمين من أوروبا مما بدل الوضع على الأرض لصالح الصليبيين،

---

[29] تاريخ حلب ص365

[30] تاريخ الحملة إلى القدس ص152

[31] تاريخ دمشق ص295

وقامت القوات الإسلامية بنهب مدينة بيسان، بعد أن أنضم إليها الفلاحون المسلمون بالقرى الصليبية، وبينما القوات الإسلامية تعمل سيوفها فى رقاب من يقع فى يديها من الفرنج، كان بلدوين وقواته معتصمه بجبل متخذه أوضاع دفاعية، ولا يجروء على التدخل لحماية رعاياه، وسرايا الإسلام تصل حتى أسوار القدس[32] ولم يبقى بين القدس وعكا ضيعة عامرة[33] وتعتبر هذه المعركة أول هزيمة كبرى للصليبيين بجنوب الشام،

لتندفع الحامية المصرية بعسقلان تعيث فى جنوب المملكة تدمر المستوطنات الفرنجية حتى تصل لأسوار بيت المقدس وهى تتبع إستراتيجية الأرض المحروقة، بينما أصوات أبواق التحذير أعلى برج داوود تصرخ بجنون، لتصيب الإقتصاد الصليبى فى المملكة بضربة مؤلمة بحرق الغلال وتدمير المنشأت الإنتاجية والزراعية، وأن لم تسعفها قلة أعدادها لأكثر من ذلك، لتنسحب بعد أسر وقتل كل من لاقتهم ،

ويتحول قارب التشتت لشاطئ الصليبيين، ويختفى ذلك التعاضد الذى وفر القوة للصليبيين حتى ذلك الوقت، فقط عانى بلدوين كونت الرها من المجاعة التى حلت بإمارته، ونظر بعين الحسد لإمارة أنطاكيا الثرية التى وفرت لإميرها جوسلين معيشة رغدة، فعند ذلك طلب بلدوين من جوسلين أن ينعم عليه ببعض ما يرفل فيه، فيرفض جوسلين فيتظاهر بلدوين بمرض يشرف معه على الموت، لتنتشر الإشاعة ويتلقاها جوسلين بسرور، ليسرع الخطى فى طريق الرها عقب إستدعاء بلدوين له لتسليمه زمام الأمور بالرها قبل موته الوشيك، ليتم القبض على جوسلين ويتم تعذيبه حتى يتنازل عن أنطاكيا، ويسيطر بلدوين عليها، بعد طرد جوسلين الذى يسارع لبلدوين ملك بيت المقدس، الذى يعيين جوسلين إميراً على مدينة طبرية،

لتصل أنباء التناحر اللاتينى لأذن الحامية المصرية بعسقلان، فتهاجم مدينة يافا فى غارة تدميرية لضرب إقتصاد المملكة اللاتينية، بعد أن أستدعوا الأسطول المصرى المتمركز بمدينة صور بلبنان، ويتم محاصرة المدينة الفزعه بينما القوات المصرية تدمر الحقول المحيطة بالمدينة ثم تنسحب لقاعدتها عسقلان،

---

32 تاريخ دمشق ص295

33 تاريخ دمشق ص295

وأن لم يمهل القدر مودود حيث إغتيل على يد جماعة الحشاشين التى إبتليت بهم الحياة فى الشرق أثناء العصور الوسطى، وأن أدت تجربة مودود لتأكيد أهمية تحالف القوى الإسلامية ضد الوجود الصليبى بالشام، كما بينت أهمية مدينة الموصل ومنطقة الجزيرة التى سينطلق منها شعلة إنشاء محور المقاومة ـ الموصل، حلب، دمشق، القاهرة ـ الذى سيقضى على الوجود الصليبى بالقدس، لترتبط فكرة الجهاد الإسلامى وضرورة طرد الصليبيين من الشام بأمراء مدينة الموصل المرتبطين بطاعة سلاطين سلاجقة فارس،

وإن أظهرت النتائج الهزيلة بالنسبة للقوات الضخمة التى تجمعت تحت قيادة مودود بسبب تضارب مصالح أمراء المدن الإسلامية، إلى أهمية إنشاء جبهة موحدة لضرب الوجود الصليبى بالشام ،

وبعد أن أطمئن بلدوين بعدم وجود أى تهديد بعد مقتل مودود وكذلك الضعف الضارب فى مصر بعد قتل الأفضل وأبنه مما شجعه للقيام بحملة أستكشافية ضد مصر بعد مد حدود دولته لخليج العقبة فأتجه بلدوين جنوباً فى مارس 1118م ليصل بلدوين حتى مصب نهر النيل بمدينة تنيس قبل أن ينسحب لتوافيه منيته قرب العريش فى 2 إبريل 1118م من إنتفاض جرح أصابة فى الواقعة الكائنة بينه وبين المصريين[34]

وكاليوم فبالرغم من الإختلافات العرقية واللغوية التى كانت تسيطر على الأوروبيين إلا إنهم إستطاعوا تخطى كل هذه الخلافات سواء مجبرين تحت ضغط بلدوين الأول أو خوفاً من الهجمات الإسلامية، أو لشعورهم بأهمية الإتحاد والتعاون طمعاً فى توسيع مساحات أماراتهم والأراضى التى أستولوا عليها، ولكن على الجانب الأخر ما زال التناحر والفرقة مسيطرة على المسلمين، فرضوان ملك حلب معادى الجميع وعلى أتم الإستعداد للتحالف مع الفرنج لقتال أخوانه، وطغتكين متهم بقتل مودود الذى لم تشفع له جهوده فى قتال الصليبيين، والفاطميون لم يكرروا تجربة التعاون مع الأتراك كتجربة الأتحاد مع طغتكين، وأمراء الأمارات الصغيرة كشيزر يميلون مع الجانب المنتصر، كل هذا أعطى الصليبيين القدرة على توسيع مساحات أماراتهم بإستمرار، والوقوف أمام الهجمات الإسلامية التى واجهتهم، كل هذا خلق جبهة مهلهلة وضعيفة ومثالية للهزيمة، وكذلك الإنقسام العقائدى الذى سيطر

[34] تاريخ دمشق ص 305، تاريخ حلب ص368

على العالم الإسلامى بوجود خلافتين سنية ببغداد وشيعية بالقاهرة علاوة على الضعف المسيطر على الخلافتين كل هذا أدى إلى إستحالة وجود أدنى تعاون بين الجميع ،

بلدوين الثانى

أدى الموت المفاجئ لبلدوين الأول لمشكلة فى من يخلفه، خصوصا لعدم وجود أبناء ذكور له فأتجهت الأنظار لأبن عمه وخليفته فى الرهُا بلدوين دى بورج ليتم تتويجه ملك بيت المقدس الجديد تحت أسم بلدوين الثانى (512-526هـ/1118-1131م) فى كنيسة القيامة الى يدخلها بلحيته الكبيرة التى أطلقها على الطريق الشرقية 14 إبريل 1118م ،

وأفتتح عهد بلدوين الثانى بكارثة حلت بالصليبيين عامة وأمارة أنطاكيا خاصة، فقد هدد روجر الأنطاكى حاكم أنطاكيا مدينة حلب، مما دفع الوصى عليها إيلغازى أمير ماردين إلى جمع جيشه وقوات صاحب بدليس، لمقاتلة جيش أنطاكيا التى تعجل أميرها روجر مقابلة نجم الدين إيلغازى (إيل غازى) إبن أرتق ولم ينتظر قوات بيت المقدس، ودفعه غروره إلى أرسال رسالة إلى إيلغازى "لاتتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك"[35]، فصلف الفرنج وصل لحد اللامعقول، وكأنهم مازالوا يعيشون فى ظل أجواء الحملة الأولى،

يزحف روجر بكامل جيش أنطاكيا، ويتخذ أوضاع دفاعية أمام حصن تل عفرين، ليلح أمراء إيلغازى عليه للمبادرة بالهجوم بدون إنتظار قوات حلب بعد ورود تقارير من جواسيس إيلغازى المتغلغلين فى صفوف جيش أنطاكيا متنكرين فى زى تجار، ليقوم إيلغازى بمناورة رائعة ينجح من خلالها بمحاصرة معسكر جيش أنطاكيا تماماً، حيث يرسل كتيبة من جيشه لمهاجمة حصن الأثارب التابع لروجر، الذى يضطر لإرسال قوات من جيشه بقيادة روبرت بونز للدفاع عن الحصن، لتخبر كشافة قوات أنطاكيا روجر بحصار الجيش الإسلامى لقواته، ليحاول روجر كسر الحصار، ويهاجم قوات إيلغازى قرب أرتاح فى معركة البلاط 28 يونيو 1119م عندها فاجئت قوات إيلغازى جيش أنطاكيا، وأمطرته بسهام كالجراد حتى شوهدت خيولهم كالقنافذ من

[35] الكامل ج10 ص553

كثرة النشاب[36] وتمزق سيوفهم قوات أنطاكيا، لتنتهى المعركة بفناء جيش أنطاكيا تماماً ومقتل أميرها روجر وجميع فرسانه[37]، ولم يعود منهم لأنطاكيا إلا عشرون فارساً[38]، وسقوط ما يتجاوز سبعين فارساً صليبياً أسيراً فى يد إيلغازى، حاولوا إفتداء أنفسهم لقاء فدية ضخمة رفضها إيلغازى ليقوم بقتلهم جميعاً[39]، ويتمكن إيلغازى من تحطيم قوات النجدة التى قادها بلدوين ملك بيت المقدس الذى لم ينجيه من القتل إلا فراره بأقصى ما يستطيع جواده وتعلقه بالجبال، ويهاجم إيلغازى قلعة سرمدا ليستسلم له حاكمها رينولد مازوار، كما حرر إيلغازى قلعة زردنا بعد هروب أميرها روبرت الأبرص، ويختفى الفرسان النورمانديون تماماً من أنطاكيا وشمال الشام مما دفع مؤرخى الفرنجة لإطلاق أسم بحر الدم على هذه المعركة ،

ليفَك آسار حلب من مصير طرابلس وغيرها من المدن الساحلية، بعد أن وطن الحلبيون أنفسهم على قرب إلحاق بلدهم بمن سبقوها لسيطرة الفرنج، ويحتفل الحلبيون إحتفال الفائز باليسر بعد العسر، وتنهال على أسماع إيلغازى قصائد المدح، وأرسل له الخليفة المسترشد العباسى الشكر على ما يفعله من غزو الفرنج ولقبه بنجم الدين[40]، لتكون معركة البلاط (سرمدا) درة فى عقد الإنتصارات ضد الفرنج، كالعادة لم يستغل إيلغازى نصره بالتقدم لأنطاكيا المفتقدة لأمير أو حتى جيش ،

وأن وعى الفرنج درس بحر الدم، بضرورة عدم إنفراد أياً منهم بعمل عسكرى ضد المسلمين، ووجوب تعاونهم وأن يعملوا متحدين، وكما أدى فقدان أنطاكيا لفرسانهما النورمانديين إلى إجبار بلدوين الثانى إلى تغطية الإمارة بفرسانه الفرنسيين فى الأساس، بعد تزويج العزاب من هؤلاء الفرسان بأرامل فرسان أنطاكيا، مما ساهم فى توحيد القوى البشرية الفرنجية فى الشرق بشكل كبير، وجعلها أكثر إلتحاماً ،

ليجد بلدوين نفسه مسئول عن أنطاكيا لحين وصول وريثها بوهيمند الثانى بن بوهيمند مؤسسها، ولم تنتهى هزائم الصليبيين عند هذا الحد، فقد ظهر بطل

---

36 تاريخ دمشق 320

37 الإعتبار ص40

38 الإعتبار ص119، يعلق العظيمى على هذه المعركة بقوله "لم يفلت من الفرنج إلا دون العشرة مجروحين، فلما وصلوا أنطاكيا ماتوا، ولم يقتل من المسلمين إلا دون العشرة" تاريخ حلب ص370

39 الإعتبار ص40

40 الكامل ج8 ص653

أخر من أبطال المقاومة، وهو نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق أبن أخ إيلغازى وصاحب قلعة صغيرة بالجزيرة تسمى "خرتبرت" الذى سارع بحصار الرها بقواته قليلة العدد، وأن اضطر لرفع الحصار، بعد إستنجاد أهالى الرها بجوسلين الذى سارع بالزحف بقواته ومعه جاليران صاحب قلعة البيرة لقتال بلك، ليطارد جوسلين بقواته بلك بمنتهى الغرور بينما يتظاهر بلك بالفرار لسحب قوات الصليبيين لمكان به ما يحد قدرة فرسانهم على المناورة التى تحتاج لميدان سهل فسيح خالى من العوائق، ليقوم بلك بنصب كمين لقوات جوسلين فى التاسع من رجب 516هـ/13سبتمبر1122م بمنطقة مستنقعات وحشائش وأحراش بجوار مدينة سروج بالرغم من قلة قوات بلك التى لم تبلغ أربعمائة فارس فقط، ويستمر جوسلين بلامبلاته فى مطاردة بلك المتأهب لمواجهته، ليصل جوسلين بقواته ليلاً إلى موقع كمين بلك، بينما عينى بلك ترنو إليهم كانت قوات جوسلين تسقى خيولها مطمئنه، لتفاجئهم سهام قوات بلك وهى ترتطم بصدورهم وبمطاياهم، ليسقط فى أيد جوسلين وتعرقل المستنقعات والحشائش قدرة قوات جوسلين على الحركة والمناورة، ليمطر بلك ورجاله بسهامهم قوات جوسلين، ليسقط معظم قوات جوسلين قتلى ويتم أسر جوسلين وأبن خالته جاليران صاحب قلعة البيرة، وقد أدى هذا الإنتصار إلى ضياع هيبة الصليبيين العسكرية، وغياب قادة الرها الأمر الذى أضطر معه بلدوين بالتكفل بالإهتمام بالأمارة بالإضافة إلى أنطاكيا، ليقوم بلدوين بزيارة أمارة الرها ليحاول تنظيم شئون دفاعها، ويعيين جفرى الراهب صاحب مدينة مرعش حاكماً عليها ،

ليقع الملك بلدوين نفسه أسيراً فى التاسع من صفر 517هـ/18 إبريل 1123م فأثناء تواجد بلدوين فى الرها وكان يشرف على تخزين القمح داخل قلاع الأمارة، أقام بلدوين معسكره بجوار مدينة كيسون وهو لا يدرى أن معسكر بلك بالقرب منه، وبينما بلك يقوم برحلة صيد أصطدم بمعسكر ملك بيت المقدس فى حوض نهر الفرات ليندفع فرسان بلك بمهاجمة الجيش الصليبى، لتنتهى الوقعة عن هزيمة بلدوين من الأمير بلك، وتحيط قوات بلك بملك بيت المقدس وتنتهى المعركة بأسر بلدوين ويضمه إلى جوسلين بقلعة خرتبرت، وتختفى قيادات ثلاثة من كيانات الصليبيين الأربع بالشرق، ليتولى أمير قيسارية وصيدا الأمير إيستاش جرنيه الوصاية على عرش بيت المقدس[41]،

[41] تاريخ الحملة إلى القدس ص195

ويجد مقاومة من البارونات الذين كرهوا فيه غطرسته وتعاليه عليهم ليتم إغتياله فى ظروف غامضة ويتم تعيين وليم بوريس أمير طبرية وصياً على المملكة، بعد إختفاء قيادات الصليبيين بمملكة بيت المقدس، والرها، أنطاكيا، وأن لم يستطيع المسلمون إغتنام هذه الفرصة الذهبية وأستئصال شأفة الصليبيين، لعدم إتحادهم فى المقام الأول

وفى هذه الأثناء خرجت حملة من البندقية تتكون من ثلاثمائة سفينة على متنها خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة دوج البندقية دومينيو كوميشيلى، بناء على إلتماس من بلدوين بسبب تخوفه بعد معركة بحر الدم، وما أن تحركت الحملة من البندقية حتى أدرك البنادقة أن الهجوم على بيزنطة قد يفيد البندقية أكثر من خدمة الفكرة الصليبية، فقاموا بالهجوم على ميناء كورفو وحصاره ستة اشهر قبل أن تصل إليهم توسلات مملكة بيت المقدس محمله بأخبار أسر الملك ووعود بمكاسب كبيرة للبندقية، فأتجهت الحملة للشام لتقوم مفاوضات لتحديد ثمن المساعدة المتوقعه من الأسطول البندقى،

وتم الأتفاق على مهاجمة صور ذات الموقع الإستراتيجى والتجارى الهام والثروات التى جعلت الإستيلاء عليها فكرة خلابة، فأصر البنادقة على معرفة الثمن مسبقاً، لتدور مفاوضات لعدة أشهر بين البنادقة وبطريرك بيت المقدس جورمون وكونستابل المملكة وليم أوف بور، فتم الأتفاق على منح البندقية شارع كامل بكنيسة وحمامات ومخبز فى كل مدينة من مدن المملكة، على أن تعفى هذه الأحياء من كافة الضرائب والجمارك، ولهم أن يستعملوا الأوزان والمقاييس الخاصة بهم، وكذلك الحصول على ثلث كل مدينة سيتم الإستيلاء عليها بمساعدة البنادقة، وكذلك أشترط البنادقة إلا تقوم مملكة بيت المقدس بعقد اى معاهدة تجارية مع أى من الجمهوريات الإيطالية المنافسة لها، وبعد الأتفاق على الثمن تم الهجوم على صور وفرض الحصار عليها فى فبراير 1124م وبعد مقاومة بطولية من حامية المدينة بالرغم من ضألة عددها، حيث كان فى المدينة سبعمائة فارس من فرسان دمشق[42] مما أجبر الصليبيين على إنتظار فراغ الطعام والمياه من المدينة المفتقده لمصادر المياه إلا ما يخزن من مصادر خارج أسوارها، ويعض الجوع بنابه أهالى صور، لتستدعى كتابات أهالى صور طغتكين أتابك دمشق بقواته ليعسكر بالقرب من المدينة وتجرى مفاوضات تنتهى بعقد إتفاق على تسليم صور فى يوليو

[42] وليم الصورى ج3 ص30

1124م، وسط إستهجان وثورة الصليبيين لحرمانهم من الغنائم والأسلاب التى كان لابد لهم من الحصول عليها لو إنهم دخلوا المدينة حرباً[43]

وفى هذه الأثناء يعمل بلدوين وجوسلين على الفرار من الأسر، وينجحوا فى السيطرة على قلعة خرتبرت، بمساعدة بعض الأرمن الذين نجحوا فى التسلل للقلعة متنكرين فى زى تجار ومتسولين، ويقتلوا قائد القلعة، ثم يتسلل جوسلين ـ نصف الأرمنى من جهة أمه ـ من القلعة لطلب المساعدة بعد أن أقسم أمام بلدوين إلا يستحم أو يبدل ثيابه قبل الإفراج عنه، ليصل جوسلين للقدس ويودع القيود التى كان مقيد بها فى السجن بمذبح كنيسة القيامة، ولكنه يفشل فى الإفراج عن بلدوين، الذى يرتاع أمام بلك الذى سارع لخرتبرت وألقى القبض على بلدوين ثانيةً ومن معه، بينما الأرمن الذين ساعدوه كان مصيرهم الإعدام، وأدت وفاة بلك إلى مفاوضات للأفراج عن بلدوين أنتهت إلى إطلاق سراحه بعد أن ظل أسيراً ثمانية عشر شهراً، لقاء فدية مالية، جعل أبنته ذات السنوات الخمس رهينه حتى يدفع هذه الفدية، فحاول حصار مدينة حلب لعلها تدفع فديته، ولكن هجومه فشل ليرتد لعاصمته،

وتداعب دمشق أحلام الملك العجوز، فيرسل هيج دى باينز مقدم الداوية لأوروبا طالباً دعم أمراءها للإستيلاء على كبرى مدن الشام، مستغلاً موت أتابكها طغتكين، وصغر سن خليفته تاج الملوك بورى، وتتراص جميع القوى الصليبية بالشام خلف بلدوين، ويجلس بلدوين فى قاعة المحكمة العليا، ويدخل إليه فولك زوج أبنته الكبرى، وأمير أنطاكيا بوهيمند الثانى زوج أبنته الصغرى، وبونز كونت طرابلس، وجوسلين كونت الرها، ويلاقى أقتراح مهاجمة دمشق ترحيب الجميع،

وتزحف جميع قوات الصليبيين فى ظل راية بلدوين فى ديسمبر 1130م، وتعسكر أمام دمشق، فى الوقت الذى تنتشر فيه قوات المشاة الصليبية حول المدينة باحثه عن إحتياجاتها المعيشية، فى حماية كتيبة قوية من ألف فارس تحت قيادة وليم بيورى كونستابل المملكة، وأمير دمشق الشاب يراقبهم من أعلى أسوار مدينته، ويقوم بشن هجوم يقضى به على الباحثين على الطعام والعلف، الأمر الذى دفع الجيش الصليبى للإنسحاب بعد كم الخسائر التى طالته،

[43] وليم الصورى ج3 ص41

وفى هذه الأثناء طمح بوهيمند الثانى أمير أنطاكيا ـ الذى أظهر حماسة لتوسيع الأراضى التى تحت سيطرته ـ فى ضم المدن التى كانت تابعه لإمارته ثانيةً، فزحف بقواته لإسترداد مدينة عين زربة فبراير 1130م والتابعه للأمير الأرمنى ليو الأول، الذى أستغاث بالأمير غازى الدانشمندى، فزحف الأمير غازى لينقض على جيش أنطاكيا الزاحف بمنتهى الثقة والغرور، ليتم القضاء على قوات أنطاكيا تماماً ومن ضمنهم أميرها الشاب، لتتولى أبنه الملك بلدوين الأميرة أليس حكم الإمارة بصفتها أرملة بوهيمند والوصية على إبنتها الوحيد كونستانس ذات الربيعان، وهو ما رفضه لاتين أنطاكيا وراسلوا بلدوين الذى أسرع للسيطرة على أنطاكيا بعد إنتشار أخبار تحالف أبنته مع أتابك الموصل عماد الدين زنكى ضده هو شخصياً، ليسارع بلدوبن لأنطاكيا، ليصادف فى طريقة فارس فرنجى بيده فرس أبيض كالحليب منتعل حدوة فضة، وعليه سرج حريرى أبيض مطعم بالفضة، ومدثر بدثار مرصع من نفس لون الفرس، ليصدم الملك عندما يعرف أن هذا الفرس هدية أبنته لزنكى، ليتابع الملك طريقة مخلفاً هذا الفارس يتأرجح على حبل المشنقة،

ويفاجئ بلدوين بأبواب أنطاكيا مغلقة فى وجهه بأوامر أبنته، ليقف بلدوين خارج أسوار أنطاكيا وقد راسل جوسلين كونت الرها طالباً مساعدته، بينما أبنته تغرق جنودها الأرمن بفيضان من الأموال معتمده على أنها نصف أرمنية من جهة أمها، بينما الفرسان الفرنج يرفضون الوقوف ضد سيدهم الإقطاعى الأعلى فيقوم الفارس النورماندى وليم أوف أفرس بعد عدة أيام بفتح البوابات أمام الملك، بينما أليس تتحصن ببرج من أبراج المدينة وترفض مقابلة أبيها إلا بعد ضمانات لحياتها، التى ستقضيها منفيه فى مدينتى اللاذقية وجبلة، مهرها من زوجها القتيل، لتعود أنطاكيا مجدداً تحت وصاية بلدوين،[44]

وأراد بلدوين عدم ترك المملكة بدون وريث بسبب عدم وجود ولد ذكر له، بل كان له أربعة فتيات فقط، فاخذ فى البحث عن زوج لأبنته الكبرى ميلزاند فأرسل سفارة لملك فرنسا لويس السادس ليرشح فارس فرنسى ليكون الزوج

[44] وصلت أخبار هذا النزاع إلى المسلمين فقد ذكرها العظيمى فى كتابه تاريخ حلب ص383

المنشود، فأختار لويس أمير أرمل وهو فولك الأنجوى كونت أنجو[45]، وهو كهل خمسينى العمر، قصير القامة بدين، أصهب الشعر، لا يوجد فى مظهره ما يجذب فتاة شابة، وكان قد سبق له زيارة مملكة بيت المقدس والإلتحاق بهيئة فرسان المعبد كعضو مؤقت، بعد أن تنازل عن ممتلكاته بأوروبا لأبنه جيوفرى، ليلقى هذا الترشيح القبول من الجميع ما عدا العروس الشابة، حيث كان فولك فى ضعف عمرها تقريباً، الأمر الذى اصابها بخيبة الأمل، ليتم الزواج بالرغم من معارضة العروس الحزينة فى 1129م، ويتم منح فولك وزوجته مدينتى صور وعكا، ليتوفى بلدوين الثانى 31 أغسطس 1131م، ليتوج فولك أوف أنجو Fulk of anjou (1131-1143م) ملك بيت المقدس فى كنيسة القيامة فى 14سبتمبر 1131م .

بدء فولك عهده بمحاولات إمارة أنطاكيا الخروج من تحت عباءة ملك بيت المقدس، بمعرفة أليس شقيقة زوجته، فهى لم تخضع لأبيها إلا مجبرة تحت ضغط القوة المسلحة، أما الأن فهى تحاول إستغلال موت أبيها لإعادة وصايتها على أنطاكيا، بالتحالف مع بونز كونت طرابلس، وجوسلين الثانى كونت الرها الكارهين كغيرهما من بارونات وأمراء الشرق اللاتينى لكل ما هو قادم من الغرب لدرجة عدم سماح بونز لفولك بالمرور داخل أرض كونتيته، وهو ما قاومه فولك بعنف، عندما زحف بقواته ليشهد الشرق اللاتينى أو إقتتال داخلى بين زعماءه، عندما ألتقى فولك بقوات أنطاكيا، ببونز بقواته الطرابلسية فى معركة أسفرت عن هزيمة بونز وفراره، وأجبرت أليس بالبقاء فى اللاذقية وفرض فولك وصايته على أنطاكيا، وأوكل إدارتها إلى رينالد مازوار[46] لورد المرقب،

ولكن أخطر تهديد كان من داخل بيته من زوجته الشابة التى أرتبطت بعلاقة أثمة بالأمير هيو (هيج) الثانى أوف لوبواسيه لورد يافا، وهو شاب شاء قدره أن يتزوج بإيما (أيميلونا) الثرية أبنة أخى البطريرك أرنولف وأرملة أيوستاس جارنيه، التى تكبره بعدة سنوات، مما أدى إلى توثيق الترابط بينه وبين ميلزاندا، لتنتشر الشائعات حول هذه العلاقة الغرامية حتى تصل لآذن

[45] كانت والدته برترادا هجرت والده بعد أن أنجبت شقيقين لفولك وهربت إلى الملك فيليب وصارت عشيقته وأنجبت منه ولدين وابنه تسمى سيسيليا التى تزوجت من تنكريد، الأمر الذى حدا بالباباوية إلى حرمانه ، مما دفع فيليب إلى إرسال أخيه هيج للإشتراك بالحملة الأولى لرفع قرار الحرمان عنه كما أشرنا بالفصل الثانى،

[46] يسميه وليم الصورى رينييه ماسوييه، تاريخ وليم الصورى ج3 ص99

الزوج المخدوع والمتيم بزوجته ليزداد حقده على غريمه هيو، بيد أن هيو رصيده حافل بالأعداء، فقد أنضم للملك أبنى زوجة هيو، الذان دفعهما كرههما لزوج أمهما للعمل على زيادة حقد الملك على عدوهم المشترك، ويتطور الأمر لمواجهة بين هيو وأبن زوجته ولتر جارنيه، ليتم تحديد يوم للنزال والمبارزة يتخلف عنه هيو، ليتم إدانة هيو بناء على تخلفه عن حضور المبارزة تبعاً لقانون الفرنجة، ليخف هيو الخطى إلى عسقلان ملتمساً حماية الفاطميين، لتقوم حامية عسقلان بإعمال تعرضية ضد الصليبيين تصل بهجومهم حتى مدينة أرسوف وأصابوا منها كثير من الغنائم[47] دون معترض، ويستغل الملك وأتباعه الأحداث فقاموا بهجوم على يافا ليتم محاكمه هيو بسبب الخيانة والأتفاق مع الفاطميين، ليتم الحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بأوروبا للحفاظ على شرف الملك[48]، وإثناء إنتظار هيو بعكا للسفر لأوروبا تنفيذاً لحكم نفيه قام أحد الفرسان بطعنه أثناء لعبه النرد ليصاب هيو أصابة بالغة لتوافيه منيته بعد سفره لصقلية مباشرة لتشير اصابع الأتهام لفولك الزوج المخدوع .

[47] وليم الصورى ج3 ص121
[48] وليم الصورى ج3 ص 122